المحاضرة الخامسة

الدراسات الكلاسيكية في المسح الاجتماعي

سنعرض الدراسات الكلاسيكية التي استخدم فيها منهج المسح الاجتماعي , وهدفنا من وراء هذا العرض أن نقف على حقيقة الجهود التي قام بها رواد البحث الاجتماعي , أنواع المشكلات التي بحثوها , والادوات التي استخدموها , والقيمة العلمية والعملية للنتائج التي توصلوا اليها, وهذا العرض يفيد فائدة كبرى في التعرف على حقيقة المسح الاجتماعي , وفي فهم كثير من المسائل المرتبطة به.

1. جون هوارد ( 1726- 1790 ) John Howard

نزل هوارد الى الميدان , واتجه الى جمع البيانات مباشرة من السجون والمسجونين . فأحصى السجون , وعدد نزلائها , وتواريخ دخولهم السجن , والامراض التي يقاس منها المسجونون : أنواعها وأسبابها , كما أحصى عدد العاملين بالسجون ومصادر دخولهم . وقد وجد هوارد أن عددا كبيرا من المسجونين وضعوا في السجون ظلما , ولم يستطيعوا حتى بعد اثبات براءتهم , مغادرة السجن لعدم تمكنهم من دفع الرسوم , كما وجد أيضا أن أغلب العاملين بالسجون لا يتقاضون مرتبات أو أجورا نظير عملهم , وانما كانوا يعتمدون على ما يدفعه المسجونون من رسوم .

وقد قدم هوارد نتائج بحثه في سنة 1774 الى أحدى لجان مجلس العموم البريطاني مطالبا بالأصلاح , فأيده أعضاء اللجنة ولم يمض زمن طويل حتى أصدر أعضاء البرلمان قانونا يقضى بالعفو عن المسجونين الذين ثبتت براءتهم وتبعه قانون اخر يقضى بمنح مرتبات للعاملين بالسجون بدلا من الرسوم التي كانوا يتقاضونها من المسجونين , ثم تبعه قانون ثالث يقضى بتنظيم عملية التفتيش على السجون للعمل على تنظيمها وتهويتها واصلاحها ولضمان كفاية الرعاية الطبية للمسجونين الذين يصابون بأمراض.

وفي عام 1775 قام هوارد بدراسة مقارنة لأحوال السجون في عدة دول أوربية. ونشر بحثا عن (حالة السجون في انجلترا وويلز وبعض السجون الأجنبية).

وقد عنى هوارد بجمع البيانات من مصادرها مهما كلفه ذلك من جهد ومشقه , حتى أنه في دراسة لنظام الحجر الصحي تعمد السفر الى مدينة البندقية في سفينة غير صحية ليبقى فترة طويلة في الحجر الصحي , وليشاهد النظم المتبعة عن كثب ولأطول فترة ممكنة . وقد نشر نتائج هذه الدراسة في سنة 1779 .

وأخيرا أصيب هوارد بالحمى وهو يقوم بدراسة عن أحوال السجون في روسيا , فوافته منيته عام 1890 . من هذا العرض يتبين لنا أن منهج هوارد كان يقوم على الأسس الآتية:-

1. جمع بيانات كمية عن الموضوع المطلوب دراسته.
2. الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة , والمقابلة الشخصية (الاستبار) في الحصول على البيانات المطلوبة .
3. العمل على الاستفادة بنتائج البحث في أغراض عملية , وذلك باستخدامها في وضع خطط اصلاحية تهدف الى تحسين الاوضاع القائمة .

فردريك لويلي Fredric Le Play

فرنسي الأصل , أسس في سنة 1856 (الجمعية العالمية في الاقتصاد الاجتماعي) , وتكونت لها فروع في كثير من البلاد , أتجه الى الاصلاح الاجتماعي الا أنه وجد أن الأمور الاجتماعية الا أنه وجد أن الأمور الاجتماعية تعوزها الدراسة العلمية الدقيقة , فصمم في وضع خطط للأصلاح الاجتماعي , وقد صادفته مشكلتان :-

أولاهما :- تحديد وحدة اجتماعية يمكن اتخاذها أساسا للدراسة .

ثانيهما :- أيجاد طريقة يمكن أن يقيس بها عناصر تلك الوحدات قياسا كميا .

وقد حل لوبلى المشكلة الأولى بأن اختار الأسرة كوحدة للدراسة لأنها أبسط الأشكال الاجتماعية, كما أنها توجد على أختلاف نماذجها في جميع العصور والمجتمعات . فهي نموذج بسيط من جهة , وكلى من جهة أخرى أي موجودة في جميع المجتمعات , كما أنها تشتمل على أهم خصائص المجتمعات الكبرى والروابط القائمة فيها ولكن بصورة مصغرة . وحل المشكلة الثانية بأن اختار ميزانية الأسرة ليجعلها أساسا للتحليل نظرا لأنها تساعد مساعدة جدية في الوقوف على تركيب الأسرة ووظائفها .

وقد قام لوبلى بدراسة عن أسر العمال الأوروبيين استغرقت حوالي عشرين عاما جمع فيها كثيرا من البيانات من الاف الأسر عن مصادر الدخل في الأسرة ومصادر الانفاق ونظام المعيشة , ثم أختار بعض هذه الأسر ليدرسها دراسة متعمقة وتوصل الى نتائج أمكن تعميمها على الجماعات المتشابهة . وقد نشرت هذه الدراسة لأول مرة في باريس عام 1855 تحت عنوان (العمال الأوروبيون) وفي عام 1864 نشر كتابا جديدا تحت عنوان (الاصلاح الاجتماعي في فرنسا) تقدم فيه بمقترحات عملية لعلاج الأوضاع السيئة للعمال الفرنسيين.

ويمكن تحديد الخطوط الرئيسية للطريقة التي اتبعها فردريك لوبلى فيما يلي:-

1. جمع بيانات كمية عن الموضوع المطلوب دراسته.
2. الاستعانة بصحائف الاستبيان في جمع البيانات وذلك لضمان الحصول على معلومات موحدة بالنسبة لكافة الأسر .
3. الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة باعتبارها أداة هامة تساعد على الحصول على بيانات دقيقة .
4. القيام بمقابلات شخصية لمختلف أفراد الأسرة .
5. القيام بمقابلات شخصية لأشخاص خارجيين يمكن الاعتماد عليهم في الحصول على بيانات متعلقة بالأسر المدروسة .

ويعتبر منهج المسح الاجتماعي الذي اتبعه لوبلى الدعامة الأساسية لكثير من المسوح الحديثة . فقام كثيرون من الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين بدراسات مشابهة لدراسته عن أسر العمال , كما قامت جمعية الدراسات العملية للاقتصاد الاجتماعي في فرنسا بتطبيق طريقته على 37 أسرة أختبرت من جهات مختلفة من أنحاء العالم . وجمعت هذه الدراسات التي امتدت من سنة 1858 الى سنة 1863 في مجلد كبير نستطيع أن نجد فيه وصفا لأسرة العامل في باريس , والمزارع في كاليفورنيا , والفلاح في سهول الصين الشاسعة .

هذا وقد وجد بعض أتباعه أن طريقته تلك لا تخلو من قصور . ذلك أن تحليله للنظم التي تتجاوز الأسرة ضئيل ولا يطابق الواقع . فهو لا يكشف عن المجتمع أجمع بصفته كلا , بل يغفل أمورا لها أهميتها , ثم ان ميزانية الأسرة ليست هي كل ما يتعلق بالأسرة . فهناك الروابط بين الزوجين وشعور الأطفال نحو أبائهم والاهتمام بتربية الأطفال وتوجيههم .

لذلك حاول بعض أتباعه تعديل طريقته ومن بينهم( دوترفيل وديمولان وروزيه ). فأنتهوا الى طريقة معدلة تحتفظ بالخصائص الرئيسية من طريقته مع أدخال بعض التحسينات عليها . وتقوم طريقة رجال هذه المدرسة على أساس توسيع الاطار الذي يشمله البحث بحيث يشمل الأسرة والمجتمع الكبير وتركيبه وخصائصه والعوامل المؤثرة فيه . ويتلخص الاطار الذي حدده رجال هذه المدرسة فيما يلي :-

1. المكان الذي تقيم فيه الأسرة (البيئة الجغرافية للأسرة والمجتمع) .
2. عمل الأسرة .
3. ملكية الأسرة .
4. الأموال المنقولة .
5. الأجرة والرهائن .
6. التوفير والأدخار .
7. نوع الأسرة : أبوية – شبه أبوية ....الخ .
8. مستوى الحياة ونمط المعيشة المادية في الأسرة : الغذاء – المسكن – الملبس – الصحة – التسلية واللهو .
9. التاريخ التطوري للأسرة : أصل الأب والأم – الحوادث المهمة – الخطبة والزواج – الولادات والأعياد والحفلات....الخ .
10. الرعاية والوصايا .
11. التجارة .
12. الثقافة العقلية : الخبرة وتجارب البيئة – التعليم – التدريب – التخصص .
13. التدين .
14. الجوار .
15. الجمعيات والأندية .
16. الناحية التي تقيم فيها .
17. القضاء – الوظائف – الادارة .
18. المدينة – موقعها وخصائصها .
19. أقسام المقاطعة .
20. المقاطعة .
21. الدولة .
22. توسيع المجتمع : الهجرة – الاستعمار.
23. العلاقة بالمجتمعات الخارجية : أسباب الاتصال – السفر والسياحة – المنافسة .
24. تاريخ المجتمع : ماضيه – تطوره – مقارنة الحاضر بالماضي .
25. مكانة المجتمع في العالم ومرتبته بين المجتمعات .

ويلاحظ على هذا الاطار أنه يتناول المجتمع من جميع نواحيه . الا أنه يغالي في أهمية البيئة الجغرافية وأثرها في المجتمع وتطوره : كما أن مدرسة لوبلي تغالى في تقدير مكانة الأسرة وان كانت لها أهمية اجتماعية كبيرة الا أن هناك تأثيرات اجتماعية لأنظمة أخرى قد تعادلها في المكانة .